

القضايا الكبرى في الاسلام

قضية التجسس لقريش

للأستاذ عبد المتعال الصعدي



هذه قضية لها قيمتها في أحداثنا الماضية ، ولو كنا نرجع في حاضرنا إلى ماضينا ، لكان لنا منه أكبر العظات ، وأعظم العبر ، ولكننا قطعنا صلتنا بماضينا ، وأخذنا نتخبط في حاضرنا ، وننظر فيه إلى من لا صلة بيننا وبينهم ، ولا يتفق أمرنا وأمرهم ، فتقطعت بيننا الأسباب ، واستفحل بيننا الخلاف ، ونكس المسلمون في زعمائهم وقادتهم ، وصاروا ينظرون إلى من يأخذ يدهم فيريد الطرف إليهم وهو حسير

في السنة الثامنة من الهجرة نقضت قريش عهدها مع النبي صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية ، فتجهز النبي للسفر ، ولم

يعلم أحباؤه بما يريد من غزو قريش إلا أبا بكر رضي الله عنه ، ثم استنفر الأعراب الذين حول المدينة ، وقال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة . فقدم جمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة ، وقد طوى ما يريد عن الجيوش ، لئلا يشيع الأمر فتعلم قريش فتستعد للحرب ، وهو لا يريد أن يقيم حربا بمكة ، بل يريد أن يباغت أهلها فيضطرمهم إلى التسليم من غير حرب ، وقد دعا الله تعالى فقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها . وفي رواية أخرى : اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم ، فلا يرونا إلا بنته ، ولا يسمعون بنا إلا قلته . ثم أمر بالطرق فخبست ، وأقام جماعة بالأنقاب يراقبون من يمر بها ، وكان عمر رضي الله عنه يطوف على الأنقاب فيقول : لا تدعوا أحدا يمر بكم تنكروا له إلا رددتموه . وكانت الأنقاب مسلة إلا من سلك إلى مكة ، فإنه يتحفظ منه ويسأل عنه

وقد أمكن حاطب بن أبي بلثنة مع ذلك التكتم الشديد أن يعرف قصد النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو لحى نزل مكة وحالف بني أسد بن عبد العزى ، ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدرا

قال : ومن عقد هذا العقد ؟ قال : شيخ البلد وهو هنا .

وأمر القاضي بشيخ البلد فدعى . فحضر شيخ لحيته إلى سرتة ، له هيئة وشية ووقار . فسأله - فقال : نعم أنا زوجت هذه المرأة بفلان المكري . أنها ذهبت إليه وساكنته تخفت عليهما المصيبة ! ! فزوجته بها الزواج الشرعي على كتاب الله ، وسنة رسول الله !

قال القاضي وزوجها الأول ؟ قال : نصحناء أن يطلقها فأبى . فهو المسمى إلى نفسه . وما أكرهتها بل زوجتها برضاها وموافقة أبيها . ولقد أنجبت منه أولاداً هم زينة البلد ، لا كأولادها من هذا الجاهل الذي لا يقيم الصلاة ...

قال أبوها وقد أحضر وسئل : نعم ، لقد رضيت بما رضى به شيخنا وعالمنا حفظه الله ، وأطال عمره ...

— ٤ —

فتاة (على الطراز الحديث ...) سافرة الوجه ، غضة الأهاب ، قصيرة الجلباب ، تحاول كلما تحركت أن تبدي ما خفي من زينتها ومن فتنها ، وقتت موقف المدعى . وكان المدعى عليه رجلا عليه سبيل الصلاح ، وكان أبوها ، فلما تكلمت تكلم معها حاجباها

وشفتاها ، ورقص في صدرها مهداها ، فأمرها القاضي بالأدب . لما رأى من تبذلها واستهتارها ، وأن تأتي (مندبيلها) على وجهها ، وأن تجد وتوجز في كلامها ، وتسكن من جوارحها ، وأن تستشير حرمة المكان ، وجلال المجلس ، وإلا حبسها بذب (الإخلال باحترام المحكمة) . فأطاعت ما استطاعت

وكانت دعواها أنها ابنة المدعى عليه ، وأنها لا تنكر أن داره رحبة ، والمال فيها وفير ، والعيش هنيء ، وأنه ليس في الدار إلا أبوها وأمها ، وأنها لا تشكو شيئا من جوع أو عرى ، ولكنها تشكو عدوان أبيها على حريتها ، فهو من (الطراز القديم) رجى جامد ، لا يؤمن بالهضة النسائية ... فهو لا يفتأ يسألها كلما خرجت ، لماذا خرجت ، وإن سهرت ليلة ، قال لها : أين كنت ، وإن سارت شابا (مهذبا) أو زارته سبها وشتتها . فهي لم تعد تحتمل منه ذلك ، وتطلب فرض نفقة لها عليه لتعيش في غير داره ...

... ولا أريد أن أكل الصورة غيب القراء هذا الجانب منها ...

وتأويله عند صاحبات (المؤمر) !

دمشق

على الطنطاوي

على الرأس وفي رواية البخاري . فلما رأت الجد أهوت إلى حنجرتها وهي محتجزة بكاء ، فأخرجته . والحجزة معقد الإزار ، والظاهر أن الكتاب كان في ضفائرها ، وأنها جعلت الضفائر في حنجرتها .

فأخذوا الكتاب منها ورجعوا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فدعا حاطباً فقال له : يا حاطب ما حلك على ما صنعت . فقال : يا رسول الله لا تعجل علي ، أما والله إنى لأؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرأة ليس لى فى القوم من أصل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من اللبس فيهم أن آخذ عندهم يدا يحمون بها قرابى ، ولم أفعله ارتداداً عن دينى ، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام .

فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى ماضى حاطب وجهاده فى إعلاء شأن الإسلام ، وإلى موقفه فى غزوة بدر ، وما كان لها من عظيم الشأن فى إظهار الدين ، وفى قصة الحديبية ومبايعته فيها على الموت تحت شجرة الرضوان ، وقد قال الله تعالى فى شأن من بآيمه تحته فى الآية — ١٨ — من سورة الفتح (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً) .

نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك كله من حسنات حاطب ، ثم نظر إلى تلك السيئة التى ارتكبها ، وهى تعدى عرف الشرائع الوضعية الحياتة العظمى للدولة ، والمقوبة التى تستحقها هذه الخيانات هى تقوية القتل ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشأ أن تنتهى حياة ذلك المجاهد بذلك الشكل القبيح ، ولم يشأ أن يضيء له جهاده الطويل فى الإسلام بقلعة من قلعات النفس ، وغواية من كيد الشيطان ، فرأى أن يستعمل فيها حقه فى العفو ، لأن الرئيس الأعظم على المسلمين ، ذله حق العفو عن مذهبهم إذا كان فيه مصلحة من المصالح ، ولكنه نظر قبل ذلك إلى من كان بالجلس من أصحابه فقال لهم : إنه قد صدقكم ، ولا تقولوا له إلا خيراً . فقال عمر رضى الله عنه : يا رسول الله ، دعنى فلا أضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك يا عمر لعل الله قد أطلع على أهل

والحديبية ، وكان له بمكة بنون وإخوة ، يخاف عليهم من قريش فى ذلك النزول ، وأراد أن يتقرب إليهم بإخبارهم بقصد النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا يتمرضوا إلى بنيه وإخوته بسوء ، فكتب إليهم كتاباً يخبرهم بذلك ، ثم استأجر امرأة بدينار وقيل بعشرة دنانير ، وقال لها : أخفيه ما استطعت ، ولا تمرى على الطريق فإن عليه حرصاً

والروايات مختلفة فى نص هذا الكتاب ، فقيل إنه كان فيه : من حاطب بن أبى بلتعنة إلى سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن فى الناس بالنزول ، ولا أراء يريد غيركم ، وقد أحببت أن تكون لى عندكم يد

وقيل إنه كان فيه : أما بعد يا معشر قريش ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءكم بحبيش عظيم يسير كالسيل ، فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله وأنجز له وعده ، فانظروا لأنفسكم ، والسلام

وقيل إنه كان فيه : إن محمداً قد نقر ، فاما إليكم ، وإما إلى غيركم ، فليكن الحذر

فأطلع الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم على ما فعله حاطب ، فقال لعلى بن أبى طالب والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب بن أبى بلتعنة إلى المشركين ، تغذوه منها وخلوا سبيلها ، فإن لم تدفعه إليكم فاضربوا عنقها

فانطلق الثلاثة تعادى بهم خيلهم حتى أتوا روضة خاخ ، فاذا هم بالظعينة تسير على بعير لها ، فقالوا لها : أخرجى الكتاب . فقالت : ما مئى كتاب . فأنأخوها وأتمسوا ذلك الكتاب فلم يجدوه ، فقالوا : ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قالوا لها : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب . وفى رواية أن علياً قال لها : إنى أحلف بالله ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبتنا ، لتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك ، فلما رأت الجد منه قالت : أعرض . فأعرض فحلت قرونها فأخرجته من عقاصها ، وهو الخيط الذى تمتص به أطراف الذوائب ، أو الشعر المصفور ، أولى الشعر بعضه على بعض على الرأس ، وإدخال أطرافه فى أصوله ، أو السير الذى يجمع به الشعر

بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . فندمت
عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم .

وقد عفا النبي صلى الله عليه وسلم بهذا عن حاطب رضى الله
عنه ، بعد أن بين به أن عقوبة الجاسوس القتل ، لأنه أرشد إلى
أن علة تركه أمر عمر بقتله هي شهوده بدرا ، فدل على أن من
فعل فعله ولم يكن بدريا يستحق القتل ، ثم نزل بعدهذا فيما فعله
حاطب قوله تعالى في الآيات الأولى من سورة الممتحنة (يا أيها
الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تاقون إليهم بالمودة
وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا
بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلى وابتغاء مرضاتى
تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم
فقد ضل سواء السبيل ، إن يفتقروكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا
إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفروا ، إن تنفعكم
أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفضل بينكم والله بما تعملون
بصير ، قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ
قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم
وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده
إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء
ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) إلى آخر القصة .

وفي هذه الآيات معاني رقيقة لذلك المجاهد الكريم بعد
ذلك الصفح الجليل ، وعظمت كريمة أطلقت إطلاقاً ، ولم توجه إليه
بمخصوصه ، حتى لا يكون في ذلك ما يشم منه رائحة تشنيع ، ولا
يكون فيه تصريح بتلك الحياة ، ولا يشوب جهاده منها شائبة
تشويه ، وعرض المفزع ذنبه خالصاً محوكل أثر للذنب ، ولا
يبقى أية حفيظة عليه في نفوس المجنئ عليهم .

ولم يكن كل هذا إلا لأن حاطباً كان من المجاهدين الأولين
في الإسلام ، وللمجاهدين الأولين في كل دعوة شأنهم في نفوس
من يأتى بعدهم ، فإذا روى لهم جهادهم إلى آخر حياتهم ،
وأحيطوا بجانب من القداسة يعلى شأن جهادهم ، وبنى معه
بعض ما يحصل من زلاتهم بحسن قصد ، ومن غير تنكر للدعوة
التي جاهدوا في سبيلها — إذا روى لهم كل هذا كانت مدعاة
لأخذ الخلف بسنة السلف في الجهاد ، حتى يتألوا مثل قداسهم
في نظر من يأتى بعدهم ، ودعا أيضاً إلى تكوين القدوة الصالحة
اللازمة في تاريخ كل أمة من الأمم ، وهى الماضى الجيد الذى
يقوم على أساسه بناء المستقبل ، وهذمه هى الحكمة الجلية في ذلك

القول الذى ورد عن أهل بدر — اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم
وفي بعض الروايات فأنى غافر لكم ، وهذا يدل على أن المراد
بقوله غفرت في الرواية الأولى أنه سيغفر لهم في المستقبل ما يقع
منهم ، وقد عبر عنه بالماضى مبالغة في تحققه ، ولو كان المراد منه
الماضى حقيقة لما صح أن يخاطب به النبي صلى الله عليه وسلم عمر
رضى الله عنه ، لأنه ينكر به عليه ما قاله في أمر حاطب ، ولا
يكون فيه إنكار عليه إلا إذا كان النفران لا يكون من ذنوبهم
بعد بدر ، على أنه لا يراد من هذا إباحة فعل الذنوب لهم ، وإنما هو
خطاب تكريم وتشريف ، ولا يراد منه إلا أنهم حصلت لهم
بتلك النزوة حالة من القداسة ، غفر معها ما سلف من ذنوبهم ،
وتأهلوا الآن يغفر لهم ما يحصل من الذنوب اللاحقة إن وقعت منهم
وقد خصهم الله تعالى بذلك تكريماً لجهادهم ، وإعلاناً عن عظيم
حبه لهم ، وما أحسن ما قيل في هذا الشأن :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألن شفيح
وموضع العظة لنا من هذه القضية أنه كان لنا جهاد سابق جمع
كلمة الأمة ، وأيقظها من رقدتها ، وسار بها في طريق الإصلاح
والنبوض ، فجئت من غار الجهاد ماجنت ، وقطعت شوطاً بعيداً
في طريق الإصلاح ثم تنكرنا لذلك الجهاد ، وأخذنا نخرج
الذين قاموا به ، وزمهم بكل قبيح ، ونكيل لهم التهم جزافاً
وتنكر أولئك المجاهدون بعضهم لبعض ، فضعت ثقة الأمة فيهم ،
وضاعت القدوة الصالحة التي تكون عمل الثقة والقداسة ، وعاد
كل شخص إلى سيرته الأولى قبل ذلك الجهاد ، لا يهمه
إلا أمر نفسه ، ولا يسعى إلا في سبيل مصلحته .

فهل لنا أن نمود إلى ماضينا فنتعظ بموضع العظة منه ، وننظر
إلى المجاهدين فيما كان ينظر سلفنا إلى المجاهدين فيهم ، ولا
تنكر لجهادهم كما تنكر الآن ، فتحاسبهم على الحقوة بأشد
ما يكون من القوة ، ونسلك في حسابهم سبيل التشنيع
والتشهير ، وهم لم يصلوا في هفوتهم إلى تلك الحياة العظمى التي
ارتكبت في تلك القضية .

وهل لأولئك المجاهدين أن يعودوا إلى سيرتهم الأولى ، فيمد
بعضهم يده إلى الآخر ، ويعرف له فضل جهاده الأول ، ذلك
الجهاد الذى كان فيما مثل جهاد أهل بدر ؟

عبد المتعال الصعيرى